

ساعة مع الحاج أمين

للأديب صبحي إبراهيم الصالح

—»»»»»—

في اليوم المأسر من ذى الحجة سنة ١٣٦٥ (الخامس من
نوفمبر سنة ١٩٤٦) كنت من فرحي في عيدين : عيد الأضحى
البارك ، وعيد مقابلي لساحة المفتي الأكبر !
كانت المقابلة في ساعة الأسيل ، وكنت أقول بيني وبين
نفسى :

« يا ليتنى أستطيع أن أجلس إليه وحدى ، أو ليت زملائي
الطلاب الفلسطينيين الأزهريين — الذين قدمت معهم لزيارة
سماحته — يدخلون مَوْحَدَ موحد ، ليتيسر لى أن أنفرد معه
فأفضى إليه بكل ما فى قلبى ، هذا القلب الذى لم ينطو لحظة
إلا على حب العروبة والرغبة فى الدفاع عن كل شبر من أراضها ،
والحماسة فى كره خصومها .

وأذنوا لنا بالمقابلة ، نفق قلبى — ونحن نجوزُ الحديقة فى
طريقنا إلى قاعة الاستقبال — فأدركت أنى سأقابل عظيمًا ، لأنى
ما عهدت قلبى يحقق لمقابلة إنسان ، مثل ذلك الخفكان .

ولم يكن بين زملائي من هو أصغر منى سنًا ، فتركهم
يتقدموننى ويسلمون على سماحة المفتي ثم يجلس كل واحد منهم حيث
ينتهى به المجلس . حتى إذا جاء دورى انحنيت محاولاً لى اليد
الظاهرة ، فمجبها بلطف . ونظرت حولى فلم أجد إلا مقعداً
خالياً عن يمين مقعد سماحته قد تهبب الجميع الجلوس عليه ،
فهيئت مثلهم لولا أن المفتي أشار إليه بنفسه ، وقال بصوت
يسيل رقة وعذوبة :

— « اجلس هنا ... أهلاً وسهلاً بكم جميعاً » .

ولا تسَلْ عن سرورى بهذه الجلسة المجاورة التى مكنتنى
من إطالة النظر إلى ذلك الرجل الربة القامة ، المعتدل الهامة ،

الصبوح الوجه ، المتلألئ الجبين ، ذى العينين الزرقاوين البراققتين
التين ما وقع بصرى على أصنى منهما ، ولا أصرح منهما ،
ولا أشد تمبيراً منهما ، والأنف المستقيم ، والشفنتين النفرجتين
عن ابتسامة مشرقة ، واللحية الكستنائية التى وخطها المشيب
فأضنى عليها مهابة على مهابة ، ثم زاده فى نظرى جلالاً — وما فيه
إلا جميل — تلك العمة على رأسه كأنها تاج — وإنها لأكرم
من التيجان — وهذه الجبة نكسويدنه كأنها لباس الملوك —
— وإنها لأعز من لباسهم — فتمثل لى كل ما فيه أصدق صورة
للرجل العربى الفخور بزيه ، المعتز به .

وكنمت أنفاسى لألتقط الكلمة الأولى التى كنت أرجو أن
تطرب لها أذنى ذلك اليوم كله — بل عمرى كله — وكنت
أنتظر أن يجلس فى القاعة صوت جَهْوَ رنان ، فإذا بى
أنصت لصوت خافت كأنه الوسوسة ، وحديث هادى موزون
لا تخرج من بين شفتى سماحته كلمة من كلماته إلا بعد أن يتأكد أنه
لا يعطى ما يريد من معناها إلا هيته ، مستميناً على إيضاح فكرته
بحركات من يد محكمة ، وإشارات ناعمة : فملت أن سماحته يؤثر
أن يكون هادى الحديث ، خافت الصوت ، قليل الحركات
بحكمة الرجل الرشيد ، على أن يكون وحي الحديث ، جهير
الصوت ، كثير الحركات ، بهود لا يفتى ، وحاسة لا تقيد .

تساءل سماحته عن كل فرد منا ، وعن الكلية التى ينسب
إليها ، والسنة التى أصبح فيها ، والعلوم التى ندرسها ، ثم أحب
أن يتمرض لقلة المدارس العربية فى فلسطين ، وأن يحتفض الهمم
إلى المطالبة بجمل المعارف فى أيدي العرب فقال :

— « إن قلة مدارسنا العالية من ويلات الاستعمار ولعناته ،
فأريد لنا خصومتنا أن نحيا أحراراً كما يحيا الناس ، وأن نكون
متعلمين كما يتعلمون ، وأن نكون متمسكين كما يتسلحون .

• كنا فى بلادنا قُرْحَانَا قليلاً ما يصيبنا داء ، أسماء نادراً
ما يدهمنا وباء : فإذا اعتلنا عرفنا كيف نتناول بأنفسنا الدواء ..
ثم ما أسأبنا الداء إلا من جرائم اليهود ، ولا دهمنا الوباء إلا من
هدوى الانكليز ، ولا مات أنفسنا الدواء إلا لأنهم أرادوا أن

يَدْفُوه بأيديهم وقد كنا ما تزال لا نقبل من الدواء إلا ما كان مدوناً بأيدينا ؛ لأن مناعتنا أبداً بِحِمِيَّتِنَا ، ولأن قوتنا في كل حين بالاستغناء عن الآخرين .

ولمك تحسب أن سماحة المفتي الأكبر كان — وهو يلقي هذه الكلمات التي أشعلت صدورنا ناراً — يعمد إلى الخطابة والبيان ، فيرتفع صوته ، ويبدو الانفعال عليه . كلا ... وإنما كان يتحدث هذا الحديث الخطير ، بصوت أعم من الحرير ، حتى أصبحت أومن بأن الإنسان العظيم يستطيع في آن أن يكون في رشاقة الغزال وقوة الأسد المصور .

ورأيت إلى يدي سماحته فإذا هما كحجر الورد ، وأخذت أطيل إليه النظر من جديد لأرى أين تكمن تلك القوة الهائلة التي جعلته يلقى العقبات الكداء فيذلها ، وتمترضه الصعاب فيقتحمها ، فقاد الثورة الفلسطينية ، وهاجر إلى لبنان ثم إلى العراق ثم إلى إيران ثم إلى ألمانيا ثم إلى فرنسا ثم لجأ إلى مصر بلد النازوق ... ألا كيف تكمن القوة في طي الوداعة ، وأنى تخفي الشدة وراء المسالة ؟ حقاً إنها قوة الروح ! وما أدراك ما قوة الروح !

وكانما استغزت كلمات الحاج أمين أكبر زملائي الفلسطينيين سنًا ، فالتفت كلمة كان يهتز معها جسده تأثراً ، وتغشمر جلودنا لسماحها حساسة ، فكان مما قاله :

— « يا سماحة المفتي الأكبر ! إن قلوب المنتصين البييسة ، تزيد أن تبقى أفكارنا حبيسة الكفن إذا أرواحاً لن يمنحها من الوثوب ، توالى المصائب والخطوب . فسماحتكم رمزنا الذي تلتف حوله ، ونمتص به ؛ وإنا لتضرع إلى الله أن يبيدك إلى وطنك مظفراً منصوراً ، لتدخله دخول الفاعحين ، فتجمع الكلمة ، وتنضم الشتات ، ونسوى الصفوف ؛ وبومئذ لا تذر على أرض فلسطين من الصهاينة دياراً : فاعيشوا إن شاءوا في دوية مهلكة أو مدائن عامرة ، وفي مغارة موحشة أو في ناطحات السحاب ، فإن نسمح لهم بالتوهين والكيد فيما بيننا ونحن ساهرون ، ولا بالتفريد والخذاع ونحن أبقاط مفتحو السيون .

عد إلى موطنك فلسطين — يا سماحة المفتي الأكبر —

ولا نحش في الله لومة اللعين » .
فقال سماحته على الفور :

— « حاش لله — يا أبنائي — أن أعتبر فلسطين وحدها موطناً لي ، فإن الوطن العربي قطعة واحدة ، وما من بلد ينطق أهله بالضاد إلا وهو موطني ، وموطن كل عربي .

ألا وإن النول الكبرى التي تستطيع أن تستغني — لو ارادت بثرواتها وقواها ، واستعداداتها ومواردها — قد أدركت فائدة التعاون ، فانضم بعضها إلى بعض ، وخطب بعضها ود بعض ، وحالف بعضها بعضاً ؛ ألا وأنتا أشد منهم حاجة إلى التعاون ، وأقرب منهم سيلاً إلى النقام : لأن شعورنا واحد ، وآلامنا واحدة ، وآمالنا واحدة .

وإن العروبة — لتعلق عليكم — يا شبابها الأبرار — أملاً كبيراً في أن تعملوا أنتم في الحقل الدرامي وفي الحقل الاجتماعي على توحيد الصفوف ، وتكتيل القوى ، حتى لا يمر عربي بفلسطين فيبكي دماً حين يرى المزرعة القراج ليس عليها بناء ولا فيها شجر فيؤكدون له أنها ليست ملك اليهود ، ويرى المستمرة المنظمة عليها البناء وفيها الشجر فيؤكدون له أنها من صنع اليهود .

تخصصوا جيداً في شئون دراستكم ، فإن العلم أقوى سلاح في هذا العالم بعد الإيمان بالمقيدة والثوق بسمو الفكرة » .

ولا حظنا بعض الزائرين يريدون اللخول ، فرأينا أن نفتح بسماح هذه النصائح القيمة ، فقام أكبرنا سنًا قمعنا ، ودنا من سماحة المفتي فدنا ، واستأذن بالانصراف فاستأذن الجميع ، فقام الحاج أمين — من لطفه — يودعنا إلى الباب ، ويصافح كلانا وهو يدعو لنا بالتوفيق .

لقد خرجت من حضرته — وإن صوته مائلة في عيني وفي أعماق قلبي — شاعراً بأنني أريد أن أسأل على خدمة بلادى بفؤاد مخلص إخلاص قواده ، وبضمير نقي نقاء ضميره .

(طرابلس الشام)

صبي إبراهيم الصالح

خريج كلية أصول الدين بالأزهر